

استنبول ١٣-١٨ أيلول ٢٠٠٧

## يوحنا الذهبيّ الفم وأنطاكية

المطران د. بولس يازجي

متروبوليت حلب والاسكندرون وتوابعهما للروم الأرثوذكس

P.B. 6976 ALEPPO – SYRIE -TEL: +963 21 4660670 - FAX: +963 21 4660671

-WEBSITE: WWW.ALEPPORTHODOX.ORG E-MAIL: SECRETARY@ALEPPORTHODOX.ORG

(ترجمة عن الأصل اليوناني: راهبات دير سيدة البشارة- حلب)

استنبول ٢٠٠٧

## يوحنا الذهبي الفم وأنطاكية<sup>١</sup>

### مقدمة

المكان والزمان هما العنصران الأساسيان في تكوين الحضارة وتشكيل الفكر البشري. فلكي نفهم بشكلٍ صحيحٍ تقدمة القديس يوحنا الذهبي الفم، فإنه من الضروري جداً أن ندرس سمات المكان والزمان اللذين ينتمي إليهما.

أنطاكية، المكان الذي وُلد، نشأ، تعلّم ووعظ فيه الذهبي الفم<sup>٢</sup>، المدينة العظيمة والثانية في الإمبراطورية الرومانية آنذاك<sup>٣</sup>، كانت تضم سكاناً يونانيين، سوريين ويهوداً، وبالطبع بحضاراتٍ متنوعة ودياناتٍ مختلفة. كانت المدينة آنذاك تحتوي على مدارس فلسفية ذائعة الصيت، وكانت الرهينة السورية مزدهرةً بسماحتها الخاصة. نشطت أيضاً في أنطاكية هرطقاتٌ كبيرة، ولكنها كانت بالوقت نفسه وطناً للاهوتيين كبار. وبكلامٍ آخر كان وضع الكنيسة برمته في حالةٍ فريدة!

عرفت تلك الحقبة من تاريخ المدينة حالةً سياسيةً خاصة. مشاكل واضطرابات، أثرت عميقاً في الحرب القائمة بين الدين المسيحي الجديد الناشئ والدين الوثني الموروث. كل هذه العناصر أثرت في تكوين المحيط الاجتماعي والديني للقديس بشكلٍ خاص، وللكنيسة بشكلٍ عام، ولعبت دوراً عميقاً في تكوين شخصية القديس ووجهت نشاطه الرعائي وكتاباته بشكلٍ واضحٍ.

كان الوضع الكنسي في أنطاكية آنذاك مضطرباً بسبب من المشاكل الداخلية والخارجية. فمن جهةٍ أولى خارجية كان الوثنيون الكثر والمتسلطون، واليهود، الذين كانوا يؤثرون دينياً على عددٍ من المسيحيين ويحاولون تعطيل مسيرة الكنيسة الجديدة. ومن جهةٍ ثانيةٍ داخلية كان الآريوسيون، والأبوليناريون، والأسوأ منهم كان الأرثوذكسيين المنشقين مع "بافلينو"، والذي بعد وفاته لم يُنتخب أسقفٌ جديدٌ منشقٌ، بل عادت العلاقات بين الطرفين لسابق عهدها، إذ اعترفت الاسكندرية بـ "فلافيان" عام (٣٩٤)، وكذلك روما بعدها، عقب توسطات الذهبي الفم بصفته آنذاك رئيس أساقفة القسطنطينية، وإرساله أكاكبوس مطران فيريا والكاهن إيسيدوروس الاسكندري لذلك الغرض.

<sup>١</sup> ترجمة عن المقالة:

*O AG. IO. CHRYSOSTOMOS KAI H ANTIOXEIA, Διεθνές Επιστημονικόν Συνέδριον επί τη 1600 επετείων Ιωάννου του Χρυσόστομου Κωνσταντινουπόλει 13<sup>η</sup>-18<sup>η</sup> Σεπτεμβρίου 2007.*

<sup>2</sup> <http://www.newadvent.org/cathen/08452b.htm>

<sup>3</sup> *Catholic Encyclopedia*, St. John Chrysostom: <http://www.newadvent.org/cathen/08452b.htm>.

*The Journal of Ecclesiastical History*, Cambridge University Press, 55 (2004), pp.455-66.

<http://journals.cambridge.org/action/displayAbstract.jsessionid=79D84CC797FC57AE5511E956AB749B10.tomcat1?fromPage=online&aid=230819##>

في ظل هذه الظروف بدأ الذهبي الفم عمله الرعائي في أنطاكية، وتمكّن من السيطرة على الحياة الروحية للمدينة. سلاحه الأعظم كان الكلمة، كان يخطب بشكل متواتر كل يوم أحدٍ وجمعة، أما في أيام الصوم الكبير وأسبوع التجديدات فقد كان يخطب كل يوم متحولاً على كل كنائس المدينة حتى الصغيرة منها، ولكنه كان يفضل الكنيسة الكبيرة التي قد أنشأها قسطنطين الكبير. كان الذهبي الفم يصون الشعب من الهرطقات، ويشدّده في الأيام الصعبة، وأشدّها كانت أحداث تحطيم "التمثيل" عام (٣٨٧). فكان يشرح للناس مضمون الكتاب المقدس ويتقدمهم في الصلاة الجماعية، كما نظم أعمال الإحسان. كانت كنيسة أنطاكية في عهده تُعيل حوالي الـ (٣٠٠٠) شخص بين أراملٍ وعذراي، بالإضافة إلى عددٍ كبيرٍ من الأيتام، كما كانت ترعى عدداً كبيراً من الغرباء والمرضى والمساجين. من هذه الفترة يأتي إلينا الكم الهائل من عظات القديس.

يمكننا أن نقسم حياة القديس إلى خمس فترات:

١. من ولادته وحتى المعموديته [٣٤٥، ٣٤٨-٣٧٠]

٢. حياته الرهبانية (٣٧٠-٣٨١)

٣. خدمته كشماس وكاهن وواعظ في أنطاكية (٣٨١-٣٩٨)

٤. بطريركيته في القسطنطينية (٣٩٨-٤٠٤)

٥. نفيه (٤٠٤-٤٠٧)

وسوف نتناول في موضوعنا هنا الفترات الثلاث الأولى.

في أنطاكية تعلّم الذهبي الفم اللاهوت وانطلق في عمله الرعوي<sup>١</sup>. وفي القسطنطينية بلغ عمله الذروة<sup>٢</sup>.

كانت عطية هذا الأنطاكيّ إلى القسطنطينية عظيمةً، لأنه نقل إليها الطابع الأنطاكيّ الأصيل والمسكوني<sup>٣</sup>.

<sup>١</sup> *Διάλογος* 5. [http://www.parembasis.gr/1999/99\\_11\\_06.htm](http://www.parembasis.gr/1999/99_11_06.htm)  
[http://vivlio.blogspot.com/2005/07/blog-post\\_08.html](http://vivlio.blogspot.com/2005/07/blog-post_08.html)

<sup>٢</sup> المصدر الأهم طبعاً هو *Διάλογος περί βίου και πολιτείας του μακαρίου Ιωάννου* الذي كُتب عام ٤٠٧ أو ٤٠٨. كذلك فإن المقطعات التي دونها مؤرخو القرن الخامس، سقراط وسوزومينوس وثيوفوريتوس (بالتسلسل ٦٢-٢٣، ٨٢-٢٨، ٢٧-٣٦) هي ذات أهمية كبيرة. أيضاً تقرّظ القديس كُتب بعد رقاد الذهبي الفم مباشرة: [PG 47, XLIII-LI]. هاماً أيضاً تقرّظ بروكلوس في نقل رفات القديس:

Πρόκλος Κωνσταντινουπόλεως, [PG 65, 829-833]

كذلك سيرة وعجائب يوحنا الذهبي الفم الذي كتبه بطريرك الاسكندرية جورجوس الثاني أصبحت مصدراً لكل النصوص اللاحقة عن يوحنا: Savile, Henrici, *Chrysostomi Opera Omnia* 8 (1612), pp.157-265.

وأيضاً السيرة الموسعة لسمعان المترجم [PG 114, 1045-1210]. انظر:

Παπαδοπούλου, Στυλιανού, *Πατρολογία*, τ.Β', Αθήνα 1990, σ.9.

<sup>٣</sup> Κονιδάρη, Γερ., *Η διαμόρφωση της Καθολικής Εκκλησίας*, Αθήνα 1955. Κονιδάρη, Γερ., «Αντιόχεια», *ΘΗΕ*, τ.Β', σ.893. Πολάκη, Παρθ., *Η Ελληνική Εκκλησία και ο κόσμος των βαρβάρων*, *ΕΕΘΣΠΘ*, τ.1 (1953).

الذهبيّ الفم كان رجلَ قرارٍ وثقافةٍ عالية، بمواهب عديدة وقدرةٍ خطابيةٍ عالية، وكان في الوقت ذاته ناسكاً بمنهجيةٍ قاسيةٍ وجدّيةٍ جداً.

على الرغم من أنّ القديس عاش في العاصمة السورية للعالم اليوناني الروماني، والتي كانت موطناً للكثير من المجتمعات المتصارعة ومدارس التفسير المتضادة، إلّا أنه تمكّن من تجاوز مبالغات الجميع، كما استطاع واستحقّ أن يكون المعلّم الأرثوذكسي والمسكوني الأول في عصره.

عرفت المدرسة اللاهوتية الأنطاكية في زمن الذهبيّ الفم، تياراتٍ أوريجنية، وأيضاً ظهرت فيها توجهاتٌ عقلانية Rationalism لا نعرف منشأها. تمثّلت هذه التيارات آنذاك بالمعلمين الكبارين للمدرسة الأنطاكية الحرفية والتاريخية في تفسير الكتاب المقدس: ذيوذوروس أسقف طرسوس (٣٩٤) وثيوذوروس أسقف ميسسولية (٤٢٨)؛ حيث أنّ تعاليمهما المتأثرة بفلسفة أرسطو شكّلت السبب الأساسي للنسبورية<sup>١</sup>.

لكنّ الذهبيّ الفم كان أباً أكبر وأعمق لاهوتياً من أن يخضع لهذه التيارات أو يقع في أخطائها. كان شهماً صادقاً لا يصمت تجاه المشاكل اللاهوتية. هكذا، كان موقفه من المدارس اللاهوتية المختلفة هو الانتقاء الصحيح، بينما تطابق بشكلٍ كاملٍ في تعابيره مع المسيرة الروحية لأثناسيوس الكبير والآباء الكبادوك<sup>٢</sup>؛ إذًا اتّبع وعاش التقليد الأرثوذكسي بصفاته وكماله<sup>٣</sup>.

ما هي إذاً الظروف الأنطاكية المحلية والزمنية المحيطة بالقديس؟ وما هي نتائج مواجهتها معه؟

## I . أنطاكية<sup>٤</sup> (تاريخياً، تخطيط المدينة، السكان، العلوم، الفنون، المعابد)

تُعرف "أنطاكية" التي تقع على الضفة الشرقية لنهر العاصي قرب "دافني" (الحريبات اليوم)، بـ"أنطاكية العظمى" أو "أنطاكية" فقط. إنها واحدة من مدن تركيا اليوم، تأسست في نهايات القرن الرابع قبل المسيح على يد سلوقس الأول القائد في جيش الاسكندر الكبير، تكريماً منه لذكرى والده أنطيوخوس الذي كان اسمه شائعاً بين أفراد عائلته.

كانت أنطاكية عاصمةً الإمبراطورية في سورية وواحدةً من أكبر وأعظم المدن اليونانية القديمة، وكانت مساهمته في الحضارة العالمية أساسية، فمنذ نشأتها على يد مؤسس الحكم اليوناني السلوقي عام ٣٠٠ ق.م وحتى انتقال سلطة العالم اليوناني إلى القسطنطينية في القرن السادس الميلادي، أي لمدة قاربت ثمانية قرون،

<sup>1</sup> Σωκρ. Ζ' 19. Κονιδάρη, Γερ., «Αντιόχεια», *ΘΗΕ*, τ.2', σ.893.

<sup>2</sup> Χρήστου, Παναγιώτη, *Ο Ιωάννης Χρυσόστομος και οι Καππαδόκai, AB*, έκδ. Παναγιώτης Χρήστου, Θεσσαλονίκη 1973:

[http://www.myriobiblos.gr/texts/greek/christo\\_chrysostom.html](http://www.myriobiblos.gr/texts/greek/christo_chrysostom.html)

<sup>3</sup> Παπαδοπούλου, Στυλιανού, *Άγιος Ιωάννης ο Χρυσόστομος*, τ.Α', έκδ. Αποστολική Διακονία, Αθήνα 1999, σσ.9-10.

<sup>4</sup> <http://el.wikipedia.org/wiki/%CE%91%CE%BD%CF%84%CE%B9%CF%8C%CF%87%CE%B5%CE%B9%CE%B1>

كانت المدينة الثانية مع الاسكندرية المصرية، مركزاً وعاصمةً كبرى للعلوم والفنون وللحياة الاجتماعية الناشطة. وعلى الرغم من أنها كانت أصغر بقليل من مدينة الاسكندرية، إلا أنها ساهمت بالمقدار ذاته، في سطوع الحضارة الهيلينية في الحقب التي تلت الاسكندر الكبير. أحداثٌ تاريخية كبيرة جرت في هذه المدينة فجعلت شهرتها عظيمة<sup>١</sup>.

منذ زمن يوستينيانوس دُعيت أنطاكية "مدينة الله"، ومنذ ذلك الوقت صار اللقب المعروف لبطريك أنطاكية: "بطريك مدينة الله العظمى أنطاكية سوريا العربية كيليكيا والبلاد الكرجية وما بين النهرين وسائر المشرق"<sup>٢</sup>.

استمرت عظمة المدينة خلال الفترات التاريخية الثلاث:

(الإغريقية ٣٠٠-٦٤ ق.م)، (الرومانية ٦٤ ق.م-٣٢٥ م) و(البيزنطية ٣٢٥-٦٣٧ م).

### تخطيط المدينة

بدأت المدينة الجديدة تتسع بوتيرة سريعة مع إنشاء أربعة أحياء كبيرة، لهذا دعيت بـ تترابولي: المدن الأربع. كانت هذه الأحياء الأربعة كبيرة لدرجة أنها شأهت المدن، حيث كانت كل مدينة (حي) تحاط بسور واحد، كما وجميعها معاً في عهد أنطيوخوس الرابع كانت محاطة بسور عظيم. كان محيط المدينة يستغرق مشياً على الأقدام زمناً مقداره خمس ساعات، وهذا يدل على أن أنطاكية كانت آنذاك أصغر من مدينة روما فقط. كانت دافني (Daphni) تعبد الإله أبولون (Απόλλωνα) الجد الأسطوري للسلوقيين. معابد شهيرة كتلك التي لأبولون، لأرتيميس، لأفروديتي وللآلهة المصرية - اليونانية إيسداس كانت تزين هذه المنطقة الرائعة، والتي كانت بالوقت نفسه ملجأً للمطاردين - تذكراً للعروس الأسطورية دافني التي كانت مُطاردةً من قبل أبولون وتحولت إلى عليقة - هكذا لدرجة أن تاكتيوس (٣٦٠) يصف هذه المدينة بأنها "جمع المعاشرات الرديئة". إن جمال هذا الوسط الساحر ساهم في خلق العادات الفاسقة التي بقيت معروفةً بالنسبة لشعوب الغرب بـ "العادات الدافنية". فوجود الأبنية الشاخنة وحمامات وقصور الملوك السلوقيين، وكذلك تماثيل الأباطرة الرومان والأباطرة البيزنطيين إلى جانب صناعة تماثيل الآلهة، جعل منها مكاناً مشهوراً ومعروفاً كواحدٍ من أروع الأمكنة في ذلك الزمان.

<sup>١</sup> كان الوثنيون اليونانيون يدعونها "أنطاكية العظمى" بينما كان المسيحيون يدعونها "مدينة الله". ليفانيوس الفيلسوف الوثني نفسه يكتب تقاريراً كثيرة عنها. يقول ماركيلينيوس "إنها مدينة معروفة في كل المسكونة لا يمكن مقارنة أي مدينة أخرى بها". أما من جهة الكبر فقد قيل أن روما فقط تجاوزتها.

[http://www.apologitis.com/gr/ancient/antioxeia.htm#ΙΣΤΟΡΙΚΗ\\_ΕΚΚΙΝΗΣΗ](http://www.apologitis.com/gr/ancient/antioxeia.htm#ΙΣΤΟΡΙΚΗ_ΕΚΚΙΝΗΣΗ)

<sup>٢</sup> Κονιδάρι, Γερ., «Αντιόχεια», ΘΗΕ, τ.٢', σ.880.

أغنياء أنطاكية وعموم شعبها تراكضوا لكي يتسلّوا في المسابقات والمصارعات الذائعة الصيت والأعياد المتنوعة لدافني، التي دام صداها لعدة قرون. لا بل استمرّ حتى في السنوات الأولى للمسيحية فيها.

## السكان

بعد إنشاء المدينة وإتمام أسوارها مباشرةً، بدأ يتدفق عليها اليونانيون والقرويون السوريون وجنسياتٌ أخرى إلى أن أصبحت تتكون من أربع مدنٍ صغيرة "تترابولي"، وقد ناهز عددُ سكانها الـ (٥٠٠.٠٠٠) نسمة<sup>١</sup>. كان الكثير من اليهود قد استوطنوا فيها منذ زمن سلوقس الأول، الذي أعطاهم حقوقاً مساويةً لحقوق اليونانيين، الذين كانوا العنصر السائد المسيطر في القيادة والحياة الاجتماعية<sup>٢</sup>. وبحسب Harnach: أن تكون مسيحياً آنذاك كان يعني أن تصبح يونانياً، لذلك وبشكلٍ عام كان نشر المسيحية يحدث في المناطق والمدن اليونانية<sup>٣</sup>. وبالطبع كان السوريون هم الأكثر عدداً، فنتج عن هذا الامتزاج تبدلٌ في الطابع اليوناني، مما أدى إلى ظهور مجتمعٍ سامٍ هشّ وسهل التبدل، كما ظهر في تاريخ المدينة الاجتماعي. والجدير بالذكر هنا أنّ الهيلينية التي اعتمدت عليها مدينة أنطاكية تركزت في المدن وليس في القرى، لأنّ السكان اليونانيين والمتهلنين قطنوا المدن بشكلٍ عام، بينما قطن الآخرون، القرويون والرعاة والفلاحون، القرى المجاورة وكانوا يتكلّمون اللغة السريانية أو الآرامية. كان بعض السوريين والبابليين واليهود يتكلّمون القليل من اليونانية لأنهم كانوا يزورون المدن ويعملون فيها. ولأسبابٍ تجارية مماثلة تعلّم بعض اليونانيين القاطنين في المدن اللغة السريانية والآرامية، أي لغة زبائنهم القادمين من الجوار. فيما بعد وعند دخول العرب، كان من الطبيعي أن تتعرّب لغة كلّ السكان بسرعة<sup>٤</sup>.

اشتهر الأنطاكيون بتقلّبهم السياسي وعدم ثباتهم؛ أما دينياً فاشتهروا بتشددهم وتعصّبهم الجنوبي لمعتقداتهم، الأمر الذي جعل طباعهم الحادة تقودهم إلى صراعاتٍ ومواجهات عديدة، وحتى إلى حروب أهليةٍ دينية. وأما من ناحية الحياة الاجتماعية فقد كانوا مشهورين بمتابعتهم للمباريات والتسلّيات في حياةٍ مرفّهةٍ

<sup>١</sup> كانت أنطاكية مدينة كبيرة يسكن فيها، بحسب الذهبي الفم ٢٠٠.٠٠٠ نسمة من الأحرار، أما مع العبيد والغرباء، والأطفال ربما، فكان عدد السكان ٥٠٠.٠٠٠.

*Eis Iynátiou*, 4. Glanville, Downey, *Transactions and Proceedings of the American Philological Association*, Vol. 89 (1958), pp.84-91.

[http://www.apologitis.com/gr/ancient/antioxeia.htm#ΙΣΤΟΡΙΚΗ\\_ΕΚΚΙΝΗΣΗ](http://www.apologitis.com/gr/ancient/antioxeia.htm#ΙΣΤΟΡΙΚΗ_ΕΚΚΙΝΗΣΗ)

<sup>2</sup> Festugiere, A. J., *Antioche paienne et chretienne*, *The Journal of Hellenic Studies*, Vol. 81 (1961), pp.232-4.

<sup>3</sup> Κονιδάρη, Γερ., «Αντιόχεια», *ΘΗΕ*, τ.2', σ.888. Harnach, A. V., *Mission und Ausbreitung des Christentums in der drei ersten Jahrhunderten*, Leipzig 1924, p.659.

<sup>4</sup> Κονιδάρη, Γερ., «Αντιόχεια», *ΘΗΕ*, τ.2', σ.879.

جداً. كانت دافني الفاخرة تصحب يوماً بالأعياد الشعبية العامة والخاصة. وقد وجد فيها الرومانيون المحبون للذات "أرض الميعاد".

بكلمةٍ مختصرة لم تكن دافني تقلّ في أية ناحية من نواحي التسلية عن أيّ من المدن العالمية المعاصرة. ربما لم تعرف أية مدينةٍ أخرى في تاريخ العالم بهاءً كهذا للاحتفالات والاستعراضات العسكرية والولائم العامة التي كان يقيمها الملوك والجنود المنتصرون، إضافةً لأعيادٍ واحتفالاتٍ لا تحصى فرضها وجود العديد من الأماكن المقدسة والشريفة فيها. لهذا برز في أنطاكية أهمّ الموسيقيين والممثلين والفنانين الكبار. ولطالما كان الموسيقيون والممثلون والفنانون مميّزين في أنطاكية.

ولكن تاريخياً لم يكن ميلُ الشعب للذات والمسارح مبتدلاً أو سوقياً، على العكس فقد سادت الطرافة والأساليب الرقيقة.

في أنطاكية، كان دخول اليهود، الذين من أصلٍ وثنيٍّ وغير العبرانيين والذين لم يتبعوا ناموس موسى، إلى المسيحية المحطة التاريخية الحاسمة في نقل المسيحية من شيعةٍ يهوديةٍ إلى دينٍ مسيحيٍّ عالميٍّ<sup>١</sup>. جديرٌ بالذكر أنه في أنطاكية أولاً دُعي تلاميذ المسيح مسيحيين<sup>٢</sup>. هذه التسمية لم تصدر عن المسيحيين ذاتهم، والذين كانوا يسمون أنفسهم "أخوة، تلاميذ، مؤمنين"؛ وطبعاً لم تأت من اليهود، الذين بالنسبة إليهم كانت كلمة المسيح تعني المسيا، فبتسمية أتباع المسيح "مسيحيين" كانوا سيقروا بأن المسيح هو المسيا. وهكذا فمن المحتمل أن اليونانيين هم الذين دعواهم "مسيحيين"، حسب النمط المعتاد في ذلك العصر. ويُعتقد أن تسمية "المسيحيين" صدرت عن الجهات الرومانية الرسمية، عندما أرادت تمييز أتباع المسيح عن باقي الديانات والهرطقات التي كانت موجودة في المدينة<sup>٣</sup>.

تأتي أيضاً أهمية أنطاكية بالنسبة للمسيحية من قوانين مجمع نيقيا المسكوني عام (٣٢٥)، عندما تُذكر مع روما والاسكندرية على أنها "أسقفيات بسلطةٍ مميزة للكنيسة" (أخذت القسطنطينية مكانها بجانب روما، الاسكندرية وأنطاكية عام ٣٨١ في مجمع القسطنطينية، بينما أورشليم في القرن الخامس)<sup>٤</sup>. أخيراً ومن خلال كلِّ ما سبق، يمكننا أن نصف الأنطاكيين بـ "متمردين"، متعصّبين للحرية، ميالين لخلق الاضطرابات، محبين للذات ومتقلّبين<sup>٥</sup>.

<sup>١</sup> [http://www.apologitis.com/gr/ancient/antioxeia.htm#ΙΣΤΟΡΙΚΗ\\_ΕΚΚΙΝΗΣΗ](http://www.apologitis.com/gr/ancient/antioxeia.htm#ΙΣΤΟΡΙΚΗ_ΕΚΚΙΝΗΣΗ)

<sup>٢</sup> أع ١١، ٢٦.

<sup>٣</sup> [http://www.apologitis.com/gr/ancient/antioxeia.htm#ΙΣΤΟΡΙΚΗ\\_ΕΚΚΙΝΗΣΗ](http://www.apologitis.com/gr/ancient/antioxeia.htm#ΙΣΤΟΡΙΚΗ_ΕΚΚΙΝΗΣΗ)

<sup>٤</sup> المرجع السابق.

<sup>٥</sup> Emmanuel, Soler, *Le sacré et le salut à Antioche au IVe siècle*: <http://www.ifporient.org/spip.php?article1353>

عام (٣٨٧) ثار الأنطاكيون على تاكتوس بسبب الضرائب، فكانت حصيلة ذلك الاثنتي عشرة عظة للذهبي الفم في "التمثيل". ولكن بدأ أفول المدينة، بعد حروب واضطرابات أهلية دينية وبسبب الزلازل. لقد كان التجار السوريون ذائعي الصيت فعلاً في حقبة السنوات التي سبقت وتلت المسيح. وقد اشتهرت آنذاك المنتجات السورية والأنطاكية التالية: صناعة النسيج، الأنسجة الناعمة، الأقمشة الأرجوانية، وصناعة الزجاج بأنواعها... كانت تجارة وتبادل العطور، الحرير، الحجارة الكريمة والتوابل ناشطة جداً أيضاً لدرجة أنها استدعت في وقت لاحق اكتشاف طرق بحرية جديدة. ساهم في نشاط التجارة أيضاً شق طرق معبّدة جديدة من قبل السلوقيين، والتي حماها الرومان وحافظ عليها البيزنطيون إلى جانب ازدهار الطرق التجارية البحرية.

كانت الحياة الزراعية مزدهرة أيضاً، استُخدمت فيها مشاريع ريّ متعددة الأحواض، وأبدعت الأساليب الزراعية الجديدة التي تعلمها العرب فيما بعد ونقلوها للشعوب اللاحقة.

### العلوم والفنون

رغم حياة الترف واللهو لسكانها، قدّمت أنطاكية عدداً كبيراً من رجال الخطابة والفكر الحرّ كما يشهد Κικέρων. من أنطاكية قام رجالٌ مثل مركلينوس وليبانيوس معلم الذهبي الفم، وإلى مدينة أنطاكية يعود فضل روح الفكاهة واللهو التي كانت تميّز تلك الحقبة من الأدب اليوناني، كما أنّ لمعان الأدب المسيحي يدين بالكثير لمحبة الأنطاكيين للأدب والمكتبات. وحتى بالنسبة للفنون كانت أنطاكية مركز إشعاع للفن اليوناني القديم. للأسف لا يوجد اليوم الكثير من المعالم الأثرية بسبب الزلازل المتكررة، ولكننا نستطيع أن ندرك بماء وعظمة أنطاكية من خلال الزخرفات الفنية الدقيقة وعظمة الفن المعماري في بالميرا وبعلبك، التي يحكي عنها بافسانيّا والتي نراها في الكثير من العملات والتمثيل والجواهر الثمينة التي كانت تزين المدينة.

### المعابد

كانت الفترة التي تلت "ظفر الكنيسة" في أنطاكية هامة جداً. حيث أنّ المزج بين الهيلينية والديانة المسيحية والشرق أنتج شكلاً جديداً من الفن تصدّرته أنطاكية، التي لم تكن مختلفة عن تلك التي دُعيت فيما بعد ببيزنطية.

لقد كان الفن المعماري الهليني - السوري سائداً، بالإضافة إلى الفنون الصغيرة (المنمنمات). في القرنين الرابع والخامس، جذب هذا الفن حتى الأباطرة من عهد قسطنطين الكبير وحتى ثيودوسيوس، الذين بنوا في

هذه المدينة الأبنية الرائعة والرحبة. فبعد عودة السلام عام (٣٣٣)، بنى قسطنطين الكبير في أنطاكية بازيليكا فخمة<sup>١</sup>، الكنيسة الثمينة الشهيرة، "الكنيسة الذهبية"، والفريدة في العالم بجمالها (بحسب إفسيفيوس) ذات الأروقة الواسعة، والطوابق المرتفعة والمكسوّة بالذهب.

مبرّرٌ إذاً نعتُ أنطاكية بـ: "مدينة الله" لكونها العاصمة المسيحية الأكبر<sup>٢</sup>. لكننا بشكلٍ عام، لا نستطيع الحصول على معلومات واضحة بالنسبة لمعاملها الأثرية، وذلك لأن أهميتها تضاءلت منذ الدخول العربي (٦٣٨) كما أمّحت أغلب معالمها الكبيرة بسبب الزلازل المتتالية.

ما نعرفه عنها يعود إلى النصوص الأدبية، كأخبار الكنيسة القديمة من القرن الثالث، والتي دُمّرت على عهد ديوكليتيانوس، وأخبار الكنيسة الكبيرة (٣٢٧-٣٤١) المدعوة كنيسة التجديد (٣٤١) وكبقايا فسيفساء وكتابات<sup>٣</sup>. لدينا أيضاً معلوماتٌ حول معالم أثريةٍ أخرى مثل دير القديس سمعان العمودي (بعد ٤٥٩) وكنيسة بافلينوس الصغيرة وأخرى في المقبرة. ولكن زلازل كبيرة دُمّرت أنطاكية التي بناها كبار الأباطرة<sup>٤</sup>.

لقد كانت أنطاكية خلال الفترات الأربع في تاريخ العالم (الهيلينية، الرومانية، البيزنطية وبعد البيزنطية)، مركزاً للتطورات التاريخية ومدينةً شهيرةً لامعةً دوماً.

ثلاث حضاراتٍ كبيرة، اليونانية والمصرية والآسيوية، التي كثيراً ما كان ينشأ عنها في السابق ثوراتٌ وانقلاباتٌ في المنطقة، تتشابك الآن في هذه المدينة ببساطةٍ وطبيعيةٍ بحيث أن الواحدة منها، مكملّةٌ ثغرات الأخرى، استطاعت أن تخلق أساساً للحضارة العالمية التي ستأخذ فيما بعد اسم الفترة الهيلينية أو الحضارة البيزنطية المبكّرة. فما حصل من تكاملٍ على المستوى الثقافي مشابهٌ تماماً لما حصل مع الدين الجديد - المسيحية.

ثلاث ديانات، الأولى هي الديانة اليونانية عبادة الآلهة الاثني عشر المستندة على التفكير الرمزي المتحرر. الثانية هي الزرادشتية الآسيوية المستندة بشكلٍ أكبر على وصف الظواهر الطبيعية واحترامها. والثالثة هي الديانة المسيحية اليهودية المبنية بشكلٍ رئيسيٍّ على الخوف والرعدة من المجهول، مع القليل من البذور الفرعونية، كلّها معاً تفاعلت وشكّلت تلك الخلفية المتطورة للديانة الجديدة - المسيحية.

<sup>1</sup> Κονιδάρη, Γερ., «Αντιόχεια», *ΘΗΕ*, τ.2', σ.889.

<sup>2</sup> <http://el.wikipedia.org/wiki/%CE%91%CE%BD%CF%84%CE%B9%CF%8C%CF%87%CE%B5%CE%B9%CE%B1>

<sup>3</sup> Κονιδάρη, Γερ., «Αντιόχεια», *ΘΗΕ*, τ.2', σ.889.

<sup>4</sup> Eltester, W., Die Kirchen Antiochias im IV Jahrh., *Zeitschr. Fur Neutest. Wiss.* 36 (1937), pp.251-86.

مثل واضح عن تمازج هذه الديانات هو رواية "ولادة الإله في مغارة"، التي نجدتها في قصة ولادة "مثرا" الآسيوية وكذلك ذيوس اليونانية، وهي من التقليد الشفهي. نجدتها تعبرُ إلى القصة المسيحية عن ولادة يسوع في مغارة، ويرد ذلك خاصةً في الترانيم مع إضافاتٍ يهودية (مثلاً: صبي جديد، من نبوءات العهد القديم). وهذا الأمر معبرٌ جداً، طالما أن قصة المغارة لا ترد في أي نص من كتب العهد الجديد.

مثل آخر لهذا التمازج الديني هو تسمية الأعياد المسيحية بصيغة الجمع (Χριστούγεννα)، مثل (Θεοφάνεια, Εισόδια) أي (أعياد الميلاد، الدخول والظهور) وهي باللغة اليونانية بصيغة الجمع، وما يقابلها من العالم اليوناني (Διονύσια, Ελευσίνα, Παναθήναια)، أيضاً نسخ بعض عبارات الترانيم من Ελευσίνα إلى ترانيم الجمعة العظيمة في المحطة الثالثة (كامل الأجيال): "Ω γλυκύ μου Έαρ, γλυκύτατο μου τέκνο" أيضاً ترنيمه "يا نوراً بهياً" المأخوذة بتصرفٍ وتعديل عن مثلتها التي لأبولون. وأخيراً أوضح برهانٍ على تمازج هذه الأديان هي المعابد التي استخدمها دينٌ بعد آخر، مع بعض التعديلات الفنية أو المعنوية.

امتزاجٌ وتفاعلٌ كهذا حدث في حياة الذهبي الفم. عوامل متعدّدة ومختلفة في مدينةٍ مميزة بتعدديتها وتقاليدها ومتقلّبة بأحداثها، تفاعلت هناك كلّها معاً لصياغة حياة وعمل وشخصية هذا القديس.

## II . تأثير المحيط الأنطاكي على الذهبي الفم<sup>1</sup>

وُلد الذهبي الفم برأي البحّاث بين (٣٤٤ - ٣٤٥ م). تعلّم الدروس الأولى على يد أمّه، ثمّ تعلّم الخطابة في مدرسة ليبيانيوس<sup>2</sup> المعلم الأشهر والكاتب الأضخم في تاريخ هذه المدينة<sup>3</sup>؛ وأما الفلسفة فقد تعلّمها في مدرسة أندراغاثيوس<sup>4</sup>. وليس من أمرٍ يوضح قدرة يوحنا ولمعانه في الخطابة أكثر من كلمات معلمه ليبيانيوس ذاته آنذاك، "لو لم يكن مسيحياً" لصار خليفته<sup>5</sup>. في عمر الثامنة عشر هجر يوحنا "الفلاسفة الاسكندرانيين"، والتصق بـ كارتيريوس وذيودرس لدراسة العلوم اللاهوتية في ما كان يسمى آنذاك بـ

<sup>1</sup> [http://el.wikipedia.org/wiki/%CE%99%CF%89%CE%AC%CE%BD%CE%BD%CE%B7%CF%82\\_%CE%BF\\_%CE%A7%CF%81%CF%85%CF%83%CF%8C%CF%83%CF%84%CE%BF%CE%BC%CE%BF%CF%82](http://el.wikipedia.org/wiki/%CE%99%CF%89%CE%AC%CE%BD%CE%BD%CE%B7%CF%82_%CE%BF_%CE%A7%CF%81%CF%85%CF%83%CF%8C%CF%83%CF%84%CE%BF%CE%BC%CE%BF%CF%82)

<sup>2</sup> [http://vivlio.blogspot.com/2005/07/blog-post\\_08.html](http://vivlio.blogspot.com/2005/07/blog-post_08.html)

Baur, Chrysostom, *John Chrysostom and his time*, vol. 1, part 1, Buchervertriebsanstalt 1988, σ.21. <http://www.reu.org/public/chrysos/life.txt>

<sup>3</sup> Σωκράτους, *Εκκλ. Ιστορία* 6,3. Σωζομένου, *Εκκλ. Ιστορία* 8, 2.

<sup>4</sup> Χρήστου, Παναγιώτη, *Ελληνική Πατρολογία*, τ.Δ', Θεσσαλονίκη 1989, σ.234.

<sup>5</sup> سئل ليبيانيوس في أواخر حياته عن الشخص الذي كان يريد كخليفة له، فأجاب أنه كان سيحدد يوحنا لو لم يكن مسيحياً.

Σωζομένου, 8, 2.

"المنسك" <sup>1</sup> Ασκητήριο الذي كان بمثابة المدرسة اللاهوتية الأنطاكية الكبرى. كما درس يوحنا الحقوق وممارس الحمامة لفترة شهور قليلة. أخيراً هجر الحمامة أيضاً واعتمد، وبعد سنواتٍ ثلاثٍ سيم "قارئاً". وسريعاً تركت أمه الحياة الحاضرة (٣٧٢)، وهذا ما سمح له بأن ينسحب من الحياة العامة ويتبع الحياة الرهبانية، الأمر الذي أدهش الأنطاكيين. نسك كراهبٍ قرب معلمٍ شيخٍ مدة أربع سنوات، ثم سنتين أُخرين كمتوحدٍ، ولما عاد إلى أنطاكية بسبب تدهور صحته سيم "شماساً"، وبعدها بسنواتٍ خمسٍ سيم "كاهناً" لمدة اثنتي عشرة سنةً في أنطاكية، حيث انتخب بطريركاً على القسطنطينية عام (٣٩٨).<sup>2</sup>

## ١. المدارس الفلسفية

إن تأثير الفلسفة والدراسات الكلاسيكية اليونانية واضحٌ جداً على لغة الذهبي الفم الأولى وعلى طريقة الحجّة والبرهان في مؤلفاته، وهذا ما يظهر في لغته المستفيضة والغنية. اعتاد الآباء القديسون في تلك الحقبة أن يمارسوا الحقوق أو الشعر والخطابة بعد إنهاء دراساتهم العلمية. ويؤكد ذلك سقراط بخصوص الذهبي الفم أيضاً، والقديس نفسه يعترف أنه كان يرتاد المحاكم والمسارح.<sup>3</sup> أما بلاذيرس فنراه لا يهتم بهذه التفصيلة من حياة قديسنا، ربما لأنه لم يرَ فيها ما يزيد من قيمة هذا الناسك والرجل العظيم، علماً أنه لم يمارس هذه المهنة أكثر من شهور.<sup>4</sup>

كان الذهبي الفم حذراً دائماً من العلوم الفلسفية ومنطقها. وهذا كان ضرورياً، إذ كثيراً ما اختلطت لدى البعض الفلسفة بالمسيحية وعقائدها فأنجحت شططاً وهرطقات، كما حدث مع معلميه الأنطاكيين مثل ذيودوروس وأبوليناريوس وايفنوميوس، الذين باستخدامهم للفلسفة حادوا عن الإيمان الحقيقي.<sup>5</sup> وكان الحذر من الفلسفة ضرورياً أيضاً بسبب تأثيرها السلبي على حياة العديد من المسيحيين حيث أبعدتهم عن خَلقيّات "ملكوت السماوات"، كما كان يقول القديس حريفاً. على العكس، فالرهبنة التي كانت في المحيط برهنت أن الفلسفة غيرُ ضروريةٍ أو أساسيةٍ للخلاص.<sup>6</sup> بالعمق كان القديس يستخدم ويقبل من الفلسفة قوتها على التعبير، الأشكالَ وجمالَ الصياغة، لكنه كان يرفض جوهرها كطريقة حياةٍ مضلّة.

<sup>1</sup> Χρήστου, Παναγιώτη, *Ελληνική Πατρολογία*, τ.Δ', ό.π., σ.234.

تألق في تلك الفترة "المنسك"، المدرسة اللاهوتية التي أسسها اللاهوتي الشهير ذيودوروس، أسقف طرسوس لاحقاً من بعد كارتيربوس. في هذه المدرسة درس يوحنا، مع كثير من زملائه ومن بينهم ثيودورس أسقف *Μοψουεστία* لاحقاً.

<sup>2</sup> Χρήστου, Παναγιώτη, *Ελληνική Πατρολογία*, τ.Δ', ό.π., σ.234.

<sup>3</sup> *Περί ιεροσύνης*, 1, 4.

<sup>4</sup> Χρήστου, Παναγιώτη, *Ελληνική Πατρολογία*, τ.Δ', ό.π., σ.235.

<sup>5</sup> Παπαδοπούλου, Στυλιανού, *Άγιος Ιωάννης ο Χρυσόστομος*, τ.2', ό.π., σ.9.

<sup>6</sup> المرجع السابق، ص.9.

يرفض قديسنا معتقدات الأقدمين والفلاسفة حول الله والعالم والإنسان، ومفاهيمهم الأخلاقية أيضاً التي لا تتطابق ولا تتوافق مع تعاليم الكنيسة. أما ما هو حقيقي في الفلسفة، مثل اعتقادهم بآله غير مادي، فهذا برأيه مأخوذٌ عن اليهودية<sup>١</sup>. لم يكن خطأً الوثنيين والفلاسفة بالأساس في العلوم الميتافيزيقية بل بالأحرى في العلوم الأخلاقية. فقد كانت تسيطر على مدينة أنطاكية العادات والأخلاق الوثنية، وكانت الحياة الاجتماعية فيها بعيدةً عن المفاهيم الإنجيلية، وهذا ما دفع الذهبي الفم إلى التهجم العنيف على الفلسفة<sup>٢</sup>. على ذلك مدح الذهبي الفم العديد من الفلاسفة مثل سقراط، وفلاسفة آخرين أقل أهمية منه (مثل *Κυνικό Διογένη* و *Θηβαίο Κράτη*)، على ما شاهده في حياتهم من التزامات إنسانية وأدبية، ومن ترفعٍ عن الماديات، لكنه لم يمدح أبداً إيمانهم ومعتقداتهم الميتافيزيقية. وعارض قديسنا أفلاطون بشدة، لما لدى الأخير من حبٍ للذنبويات ولمعارضته أرسطو في فكرة إمكانية التقرب من الله<sup>٣</sup>. يتكلم الذهبي الفم كثيراً عن اللامدرك عند الله<sup>٤</sup>. لكن ليس بالمفهوم الأفلاطوني، بل بل بما يعارضه.

عموماً يحاول بعض البحاث المعاصرين أن يبرهنوا أن الآباء نجحوا في دمج الفلسفة الهيلينية مع الديانة المسيحية، وأثناء بحثهم عن شواهد مماثلة لدى الذهبي الفم تبين لهم أن القديس يعارض الفلاسفة وأعمالهم بشدة<sup>٥</sup>. إنه يرفض أفكارهم ومعتقداتهم، لكنه لا يعارض التربية الكلاسيكية والعلوم الإنسانية والفنون والخطابة والشعر، والاعتبار من حياة وأعمال بعض الرجال التاريخية وبعض الفلاسفة الكبار. العلوم التربوية العالمية والفلسفية مقبولة لدى الذهبي الفم حتى الحد الذي تتعارض عنده مع الخلقيات المسيحية والإنجيلية: "اقرأ، إذا شئت ما في إيماننا، كما وما لدى الآخرين"<sup>٦</sup>.

في تفسيره للرسالة إلى أهل أفسس، وقبل مغادرته أنطاكية إلى القسطنطينية بقليل، متوجهاً إلى الأهل عن شؤون التربية، يجد الاختلاف الأكبر بين المسيحية والفلسفة في الفارق بين العمل الحقيقي والكلام الفارغ: "الأعمال، وليس مجرد الكلام، هي التي تُدخلنا الملكوت"<sup>٧</sup>.

<sup>1</sup> PG 47, 347. Παπαδοπούλου, Στυλιανού, *Άγιος Ιωάννης ο Χρυσόστομος*, τ.2', ό.π., σ.10.

<sup>2</sup> المرجع السابق، ص ١١.

<sup>3</sup> Bartelink, G. J. M., "Philosophie" et "Philosophe" dans quelques œuvres de Jean Chrysostome et ses œuvres dans l'histoire littéraire, Louvain 1907.

<sup>4</sup> *Περί ακαταλήπτου*, PG 48. *Sur l' incompréhensibilité de Dieu*, SC 28.

<sup>5</sup> *Πρός πιστόν πατέρα* 11, PG 47, 367. *Εις τη β' Θεσσαλονικείς*, Ομιλία Α' 2, PG 62, 47.

<sup>6</sup> *Εις Β' Θεσσαλονίκη*, Ομιλία Α' 2, PG 62, 47.

<sup>7</sup> Παπαδοπούλου, Στυλιανού, *Άγιος Ιωάννης ο Χρυσόστομος*, τ.Β', ό.π., σσ.12-13.

إنَّ سبب معارضته للفلسفة وحذره منها واضحٌ في شرحه للرسالة إلى أهل رومية<sup>١</sup>. لقد نال الناسُ من الله معرفةً الحقيقة، لكنهم دفنوها في أحجارٍ وأخشاب، فانقلبت الحقائق: "لأنَّ غضب الله معلَنٌ من السماء على جميع فجور الناس وإثمهم الذين يجربون الحق بالإثم. إنَّ الله أظهرها لهم"<sup>٢</sup>. إنَّ الله أظهر ذاته وأعماله من خلال الخليقة وانتظامها وهذا يُعلن عنه<sup>٣</sup>، لكن الناس بدل أن يعرفوا الله ويعبدوه، عبدوا الخليقة بسبب فلسفتهم ومنطقهم وضلُّوا عن معرفة الله الحقيقية.

## ٢. الأخلاقيات الرواقية

كان من الطبيعي أن ينتقي الذهبيّ الفم بعضاً من الفلسفة، ولكن بشكلٍ خاص من الحكمة الرواقية وأخلاقياتها، وأوضح مثال على ذلك هو عمله: "من لا يظلم ذاته لا يظلمه أحدٌ"<sup>٤</sup>. تبدو الأخلاقيات الرواقية الرواقية هنا واضحةً جداً، حيث يغيب تقريباً حتى اسم يسوع. يُفترض أن هذا المؤلف كان موجهاً لأناسٍ يقتنعون بالبراهين الفلسفية<sup>٥</sup>. على الرغم من ذلك فإن المنطلق الإيماني فيه هو إسختولوجي ومختلف في غاياته ومبادئه عن تلك التي للفلسفة<sup>٦</sup>. هذا التأثير الرواقي واضح أيضاً في مؤلفه "مقارنة بين ملكٍ وراهب"<sup>٧</sup>. يستخدم قديسنا، على سبيل المثال، التصنيف الثلاثي الرواقي للأمور (الصالحة - الحيادية - الطالحة)، لكن مضمونٍ مختلفٍ جداً عن ذلك الذي للرواقيين<sup>٨</sup>.

تميزت كتاباته، في السنين الأولى خاصةً خلال عمله الرعائي في أنطاكية، بتأثرها الواضح بالقوانين الخطابية والمعطيات الفلسفية التي كان قد تعلَّمها من معلمه الفيلسوف الشهير ليبانيوس وأتبعها في البداية. لكنه لم ينسَ أبداً بعض عناصر الأدب والأخلاقيات الرواقية وأشكال الخطابة حتى أعماله الأخيرة.

## ٣. الخطابة في أنطاكية

كانت روح المنافسة الخطابية سائدةً في أنطاكية، والكثيرون كانوا يعيشون من هذه المهنة. أحبَّ المثقفون في زمن القديس متابعة الحفلات الخطابية والشعرية وتمتعوا فيها، وكان شغلهم الشاغل تفضيلهم وتقديم لهذا الخطيب دون ذلك. فكانوا يعظِّمون شأن من يأتي بجديدٍ أو جميل، أو يُحطِّون من شأن مَنْ يكرِّر سابقيه أو لا يؤثِّر فيهم. لهذا، لو لم يمتلك الذهبيّ الفم ويمارس هذا الفن الخطابي لما سمِع له أحدهم، ولا حتى

<sup>١</sup> *Ομιλία Γ'*, 1-3.

<sup>٢</sup> رو ١، ١٨-١٩.

<sup>٣</sup> PG 60, 415.

<sup>٤</sup> PG 52, 459-80.

<sup>٥</sup> Παπαδοπούλου, Στυλιανού, *Άγιος Ιωάννης ο Χρυσόστομος*, τ.Β', ό.π., σ.18.

<sup>٦</sup> Yazigi, Παύλου, *Εσχατολογία και ηθική*, (Διατριβή επί Διδακτορία), Θεσσαλονίκη 1992, σσ.128-9.

<sup>٧</sup> PG 47, 387-392.

<sup>٨</sup> Yazigi, Παύλου, ό.π., σ.130. Spanneut, M., *Le stoïcisme des pères de l' église de Clément de Rome à Clément d' Alexandrie*, Paris 1957.

البسطاء أيضاً من المسيحيين، الذين كانوا جميعاً مأخوذين بهذا الجو اللغوي العام. من هنا ندرك لماذا استخدم آباء تلك الحقبات لغةً مركبة من لغة العهد الجديد ولغة الفلسفة، وكيف استخدموا بعض الأشكال أو توسعوا في بعض الشروحات والمعاني التي لم تكن تُفهم من عامة الناس، كان عليهم أن يخاطبوا أيضاً تلك الطبقة والشريحة العامة المحبة لتلك الفنون.

حاول الذهبي الفم نقضَ هذا الجو العام المتعلق بأشكال خارجية للخطابة، لهذا كان يقرع في وعظه بشدة تسمك الجمهور الجنوبي بما هو سطحي وخارجي من الكلام على حساب المضمون، مفضلين فنون الكلام على محتواه. أما هو فلم يتوقف عن التركيز على معاني الكلمة، التي لا تتعدى فيها قيمة الفنون والخطابة ضرورة تحسين طريقة إيصال المعاني للمستمعين.

كان القديس من هذه الناحية نائراً بالنسبة لمفكري عصره، الذين كان يُنظر منهم مثله عدم الخضوع لتزوات وإعجاب الجمهور بفنون الكلام دون معانيه، لهذا كان الذهبي الفم ينادي بعدم التأثير بمدح الناس، على العكس يدعو إلى توجيههم ليصلوا إلى الجوهر بعد الشكل.

لغة الخطابة عند فم الذهب تختلف في غايتها عن تلك التي للفلاسفة، لأن الغاية عنده هي المعاني الكتابية والروحية وليس إعجاب الناس أو إشباع رغباتهم الفكرية؛ على ذلك فهو يستخدم القوانين اللغوية والخطابية بشكل صحيح وغني، لكن كأداة لتحسين إيصال المعاني وتحسين فهم الناس له. وهكذا يحرر الكلام من المبالغات والإطلاقات التي كانت تفقده حقيقته وغايته. إن فنون الكلام مطلوبة بالمقدار الذي تساعد فيه لجعل الكلام حياً أكثر وفعالاً.

كتابات الأولى، خاصة في أنطاكية، تميزت باعتناء لغوي واسع والتزام واضح بقوانين الخطابة. لكن مع تقدم الأيام وبعد خبرة وعظ طويلة لم يعد أسيراً لهذه القوانين ولم يتقيد بها، بل صارت لغته تتمحور حول توضيح المعاني بشكل أساسي. هكذا كون لذاته لغة ذات لهجة خاصة، فأكثر من طرح التساؤلات والإجابة عليها، عرض المتناقضات والاستفادة منها، استخدام الرموز والتأويل والاعتماد على الأمثال والعبير التصويرية.

#### ٤. تيارات عقائدية معاصرة

كانت مقالات فم الذهب في المسائل العقائدية موضوع بحثٍ حادٍّ وإشكالٍ من قبل اللاهوت المعاصر، وهذا لوجود نصوصٍ تصلنا، وتم التأكد من صحتها، يعبر فيها عن آرائه حول انشقاق الكنائس وتراتبية الرسل. لقد كان قديسنا، كما كلُّ آباء الكنيسة الكبار، واضحاً أيضاً فيما يختص بطبيعي أقنوم يسوع المسيح.

الأمر الذي يؤكد عليه هو أن لوحدة الإيمان والعقيدة المكانية الأولى، لأنها مهددة بشكل دائم من خطر الانقسام بسبب المعتقدات الغريبة<sup>1</sup>. تتحقق هذه الوحدة باشتراك الجميع في الافخارستيا الإلهية و"الخبز" الواحد<sup>2</sup>. يجب، كما يقول، أن يشعر كل أعضاء الكنائس في مختلف الأمكنة، من الهند وحتى روما<sup>3</sup>، أنهم "جسدٌ وروحٌ واحدٌ" وأن لهم الإيمان نفسه وألاً يتراجعوا أمام المعتقدات الخاطئة والمهرطقات التي تحطم الهوية الحقيقية للكنيسة الحقيقية، الوحيدة والواحدة، لأن النعمة الإلهية الحقيقية توجد "فقط" عندما وحيث يرتكز الجميع على "الأساس" نفسه و"الإيمان" نفسه<sup>4</sup>، عندما "نظهر كلنا أن لنا إيماناً واحداً"<sup>5</sup>. لا يمكن للإيمان بهرطقة وعقيدة غير صحيحة أن يقود لظفر الحياة الأبدية حتى لو سكب من أجلها "دم استشهاده"، يقول الذهبي الفم<sup>6</sup>.

المسألة الأخرى التي يأخذ فيها موقفاً واضحاً هي أولوية الرسل. يتطرق الذهبي الفم بوضوح إلى تقدم بطرس أمام باقي التلاميذ بسبب إيمانه ومستواه الروحي<sup>7</sup>. واضح أيضاً أن الذهبي الفم يعتقد، كما يبدو في عظاته<sup>8</sup>، بأن الرسل "متساوون بالكرامة"، ويفسر تصرف بولس مع بطرس عندما زاره أولاً في أورشليم، قائلاً أنه ليس أدنى بل على الأقل "مساوٍ في الكرامة". يذكر أيضاً أن المسيح عندما قال أنه سيبني على "هذه الصخرة" الكنيسة، كان يعني بذلك صخرة الإيمان واعترافه وليس الشخص<sup>9</sup>.

أخيراً في كل ما يخص الأولوية بين الرسل يذكر أن الرسل شُربوا رؤساء على المسكونة كلها وليس رؤساء مكانٍ أو شعبٍ معين<sup>10</sup>. ويطرح تساؤلاً، لماذا لم يستلم بطرس كرسي أورشليم وإنما يعقوب، شارحاً كيف شُربن بطرس "معلماً للمسكونة"<sup>11</sup>.

عاش الذهبي الفم في زمن كانت فيه المهرطقات قد ضعفت وفشلت بعد أن دحضها قبله آباء كبار مثل باسيليوس، أناسيوس، غريغوريوس اللاهوتي وغريغوريوس النيصصي<sup>12</sup>. مع ذلك كان الجو العقائدي في أنطاكية مختلفاً عن روح المجمع المسكوني الأول في نيقية، المجمع الذي كان الذهبي الفم متفقاً معه. لهذا لا

<sup>1</sup> *Eis A' Korinth. Omilia A'1*, PG 61, 13.

<sup>2</sup> PG 61, 100.

<sup>3</sup> PG 59, 361-2.

<sup>4</sup> PG 61, 72.

<sup>5</sup> PG 62, 83.

<sup>6</sup> PG 62, 85.

<sup>7</sup> *Eis Romaious, Omilia AA 4*, PG 60, 672.

<sup>8</sup> *Eis Galatas Omilia B'3*, PG 61, 63. *Galatas, keph. A'11*, PG 61, 631-2.

<sup>9</sup> *Eis Galatas, Omilia A'1*, PG 61, 611.

<sup>10</sup> *Opti chrisimos h twn Grafon anagnwosis, G 4*, PG 51, 93.

<sup>11</sup> *Eis Iwannah Omilia PH 1*, PG 59, 480.

<sup>12</sup> *Χρήστου, Παναγιώτη, Ο Ιωάννης Χρυσόστομος και οι Καππαδόκαι, ό.π.:*

[http://www.myriobiblos.gr/texts/greek/christo\\_chrysostom.html](http://www.myriobiblos.gr/texts/greek/christo_chrysostom.html)

Baur, Chrysostom, ό.π., σ.21. <http://www.reu.org/public/chrysos/life.txt>

نرى الذهبي الفم يتناول العقائد بخصوص الله والثالوث، وتعاليمه حول ذلك غير ظاهرة، مادام هو يفسر الكتاب المقدس كجسمٍ وتعليم واحد.

بعد فلافيانوس، يأتي الذهبي الفم كقائدٍ روحيٍّ لمدينة أنطاكية، وصار فخرها<sup>1</sup>. هناك ككاهن وراعٍ خلصها من غضب الملك، عند الثورة الأنطاكية ضد الضرائب الجديدة المفروضة (٣٨٧)، حيث بوساطتهما منح الإمبراطور عفواً.

كان فم الذهب متحرراً من مدرسته الأنطاكية فلم يقع بتطرفاتها، (كما يلاحظ Altaner لا ترد عند الذهبي الفم عبارة Θεοτόκος)<sup>2</sup> في مؤلفاته ترد العبارة (Ομοούσιος = مساوٍ في الجوهر) أقل مما ترد في استخدامه العبارة مثل (Ὅμοιος κατά πάντα = مشابه بكل شيء) الأقرب إلى آباء المدرسة الأنطاكية أو (ὁμοιος κατά την ουσία = مشابه له بالجوهر)، ربما كانت غايته إعطاء المعنى ذاته لعبارة الجمع الأول (Ομοούσιος) ولكن دون أن يثير حفيظة الجوّ الأنطاكي وبعض المتطرفين، ولكي لا يتسبب في انشقاقاتٍ أخرى. لا يمكن فهم ما ذكر كعدم توافقٍ بين الذهبي الفم وبين تعاليم الجمع الأول. فهو في شرحه لإنجيل يوحنا يورد بوضوح: "الله، الكلمة والجسد، واحدٌ باتحادهما وارتباطهما... بشكلٍ فائق التعبير"<sup>3</sup>، وهي العبارة التي استخدمها الجمع المسكوني الرابع.

كان لابد للذهبي الفم أن يوضح هذه التعاليم الأرثوذكسية تجاه مواقف ليس لبعض الفلاسفة وحسب، وإنما تجاه شطط بعض الشخصيات الروحية مثل ذيودرس طرسوس وثيودورس Μοψουεστίας بخصوص طبيعته المسيح. يتبنى فم الذهب العبارات والمفاهيم الخريستولوجية التي لأثناسيوس الكبير والكبادوك وبذلك يتجاوز المشاكل الأنطاكية وهرطقات آريوس وأبوليناريوس وذيودرس طرسوس... يورد بشكلٍ متواتر كلمات مثل (συνάφεια - ارتباط) و(ένωση - اتحاد) بخصوص طبيعته المسيح الإلهية والبشرية، بحيث يعارض أي مفهوم "اختلاط أو تحوّل" في الطبيعتين، هكذا لم تتحول الطبيعة الإلهية إلى إنسانية، ولا ابتلعت الطبيعة الإلهية الطبيعة الإنسانية.

الذهبي الفم واضحٌ بشأن طهارة يسوع بطبيعته البشرية من أية خطيئة. في تفسيره للرسالة إلى أهل رومية يشرح أنّ طبيعة المسيح هي تلك التي نالها آدم قبل سقوطه وكان منتظراً ألاّ تخطئ. الآن في يسوع

<sup>1</sup> Παπαδοπούλου, Χρυστ., *Ιστορία της Εκκλησίας Αντιοχείας*, Αλεξάνδρεια 1951, σ.291κ. ἐξ.

<sup>2</sup> Altaner, Berthold, *Patrologie, Leben, Schriften und Lehre der Kirchenvater* 1966, p.286. Κονιδάρης, Γερ., «Αντιόχεια», *ΘΗΕ*, τ.2', σσ.892-93.

<sup>3</sup> *Ότι εαυτό μή αδικούντα ουδείς παραβλάβαι δύναται*, PG 52, 459-480.

تحققت الغاية الإلهية من الخلق للطبيعة البشرية، الأمر الذي فشل بآدم الأول. لكن الآن بالتجسد والقيامة بلغت الطبيعة البشرية غايتها في يسوع المسيح.

الحرية البشرية والإرادة الحرّة هما من أهم المفاهيم السائدة عند الذهبي الفم. ليس الجسد بطبيعته شريراً لكي يقودنا إلى الخطيئة، وبعد السقوط، أبقى الله للإنسان حرّيته، وإرادته الحرة هذه هي التي تسبب الخطيئة أو تقوده للقداسة.

## ٥. اليهودية

مواقف الذهبي الفم من اليهودية هي موضع مناقشات عديدة عند البحاث واللاهوتيين، فالبعض يعتبرونه محارباً للسامية<sup>١</sup>. بالطبع يتابع يوحنا الذهبي الفم الروح المسيحية منذ نشأتها بالاعتراض على اليهودية، هذا التقليد بدأ من زمن يوستين الشهيد والفيلسوف ترتليان، أثناسيوس الكبير والآباء الكبادوك. للذهبي الفم مقالات<sup>٢</sup> ثمان شهيرة يعترض فيها بقوة على اليهودية وينتقدها بشدّة، متناولاً العادات والعبادات. هذا النقد اللاذع مشابه تماماً لمواقف أنبياء العهد القديم ذاتهم ومواقف المسيح أيضاً ومستوحى منها.

الدواعي التي فرضت على هؤلاء الآباء كما على الذهبي الفم هذا النقد الواضح كانت المحاولات العديدة آنذاك لاحتواء العبادة المسيحية ضمن إطار العبادة القديمة اليهودية، بغاية خنق الدين الجديد وإعادة المسيحيين إلى الإيمان القديم وإلغاء كلّ الدور الخلاصي الذي تمّمه يسوع. من مقالاته نكتشف نقد الذهبي الفم للأعياد اليهودية التي باتت الآن غير مسيحية، والتي كان المسيحيون في أنطاكية يشاركون بها فكان يغيب عنهم ما هو جديد في المسيحية، والفارق الذي أدخله المسيح<sup>٣٧</sup>.

سبب آخر اقتضى هذا النقد للدين القديم والتميز للدين الجديد، وهو الطُرق الملتوية وغير المباشرة التي كان اليهود يمارسونها تجاه المسيحيين لإبعادهم عن المسيحية. كانت الجالية اليهودية في أنطاكية مقتدرة جداً بسبب غناها واستطاعت التأثير حتى في السلطة السياسية للأمبراطورية هناك أيضاً. احتلت هذه الجالية مواقع قضائية كثيرة كانت تقاضي في مسائل للمسيحيين، فتجنباً للمظالم كان هؤلاء الأخيرون يضطرون للمشاركة مع اليهود باجتماعاتهم الدينية والاجتماعية والتقرب منهم، الأمر الذي كان ينعكس سلباً على ممارستهم الدينية المسيحية.

## ٦. الرهبنة السورية

<sup>١</sup> <http://www.chrysostom.org>

لقد كانت الرهبنة المدرسة الأولى التي تتلمذ فيها الذهبي الفم، ولقد كتب عنها الكثير<sup>١</sup>. شاباً في الثامنة عشرة من عمره تأكد الذهبي الفم من بطلان الفلسفة العالمية ومسيرته الفكرية النظرية، لكننا لا نعرف تماماً متى ولماذا توجه إلى "منسك" ذيودرس الشهير، لا بل الجامعة اللاهوتية آنذاك<sup>٢</sup>.

كان "المنسك" شكلاً من أشكال المدارس اللاهوتية مع الحياة النسكية في آن. كان العمل الأساسي هناك هو دراسة وتفسير الكتاب المقدس، ومن ثمّ كلّ الإيمان المسيحي وعقائد الكنيسة<sup>٣</sup>. كان من رفاق الذهبي الفم آنذاك: ثيودورس أسقف Μοϋρουεστίας فيما بعد (٤٢٨+)، ومكسيموس أسقف سلفكيا لاحقاً وآخرين<sup>٤</sup>.

نعم، سنوات قليلة عاشها الذهبي الفم كراهب، لا تناهز الست سنوات، لكنه لم ينقطع طيلة حياته عن متابعة هذه الروح النسكية وعن الوعظ عنها والإعجاب بها. الجدير بالذكر، أن المعطيات التي ترد عند الذهبي الفم عن الرهبنة تُعتبر من المصادر الأولى الأساسية التي تصلنا عن الرهبنة السورية.

انتشرت الرهبنة السورية في كلّ تلك البقاع وكانت تتميز بالشدة في النسك والصوم<sup>٥</sup>، وتأثرت ببعض التيارات والمفاهيم والعادات الشرقية، وبشكل خاص بالمجموعات المتحمّسة (أبناء وبنات العهد)، وبالمتوحدين في بلاد ما بين النهرين. قرب أنطاكية على الجبال وعلى أطراف العاصي وعلى سفوح "جبل الشيخ" و"تل عدي" وعلى كلّ الجبال المحيطة بالمدينة، خاصة عند جبل حبيب النجار، عاش عددٌ غفيرٌ من الرهبان والنساك إما كحياةٍ مشتركة أو كمجموعاتٍ صغيرة (٢-٣ رهبان معاً)، وأيضاً كمتوحدين<sup>٦</sup>.

لم يتبع النساك قوانين محددة، بل بالأحرى كانت الطرق متعدّدة وحرّة<sup>٧</sup>. فهناك عدة أشكال للحياة، يوردها ايرونيوموس. عاش الذهبي الفم مع مجموعةٍ صغيرة في منسك لمدة أربع سنوات، ثم كمتوحداً لمدة سنتين. ومن السهل أن نلاحظ الكثير من خبراته الروحية النسكية الشخصية في كتاباته<sup>٨</sup>. ويرد عند الذهبي الفم الكثير عن فضائل وطبيعة الحياة الرهبانية بكلّ أشكالها الجماعية والتوحيدية<sup>٩</sup> لكن تأثيره الكبير كان ببعض

<sup>1</sup> Schaff, Philip, *Nicene and Post-Nicene Fathers of the Christian Church*, vol. IX, Christian Literature Publishing Co., New York 1886, p.6.

حول الرهبنات الأولى انظر:

Schaff, Philip, *History of the Christian Church*, vol. III., Hendrickson Publishers, 1985, p.147.

<sup>2</sup> Σωζομένον, *Ἐκκλησι. ιστορία*, Η' 2, 5-6.

<sup>3</sup> Χρήστου, Παναγιώτη, *Ελληνική Πατρολογία*, τ.Δ', ό.π., σ.234.

<sup>4</sup> Παπαδοπούλου, Στυλιανού, *Άγιος Ιωάννης ο Χρυσόστομος*, τ.Α', ό.π., σσ.23-4.

<sup>٥</sup> المرجع السابق، ج ٢، ص ١٩.

<sup>٦</sup> المرجع السابق، ج ١، ص ١٤.

<sup>٧</sup> المرجع السابق، ج ١، ص ١٥.

<sup>٨</sup> انظر مثلاً [PG 47, 403].

<sup>9</sup> Παπαδοπούλου, Στυλιανού, *Άγιος Ιωάννης ο Χρυσόστομος*, τ.Β', ό.π., σ.21.

بعض الرهبان المواهبين والمميزين مثل مكدونوريوس وسابا (غير المتعلم) (+ ٣٧٧) وسواهما من الذين كانوا يزورون أنطاكية، وكان الشعب يجلّهم أكثر من الملوك<sup>١</sup>.

حتى أبناء الملوك والأمراء، مالين من الرفاهية المفرطة وحياة اللهو التي سادت أجواءهم الأنطاكية، زهدوا بكل شيء وبأهلهم وتبعوا هؤلاء الرهبان معجبين بهم وبجياهم وبتعاليمهم. رفض الذهبي الفم بعض التطرفات مثل جماعة "المصلين" الذين أدانتهم المجامع<sup>٢</sup>، وكذلك قبله فلافيانوس أسقف أنطاكية (٣٩٠).

أغلبية الرهبان هناك كانت تجهل اليونانية، ومن الواضح أن العديد من الصلوات في الأديار كانت تتم باللغة السريانية مع اللغة اليونانية.

ازداد إعجاب الناس بالرهبان وعظمت محبتهم تجاههم بعد الأحداث الشهيرة في أنطاكية (٣٨٧). فعندما ثار الشعب وحطم تماثيل الملوك، بدأت المحاكمات والعقوبات على الثائرين من مرسلي الإمبراطور ثيودوسيوس. وقتها نزل النساك، الذين كانوا منقطعين عن العالم عشرات السنين، وتركوا مناسكهم وأديارهم، قاصدين مدينة أنطاكية وتوسطوا لدى الحكام والقضاة والعسكر، لا بل مرات كثيرة كان الرهبان يقدمون ذواتهم بدلاً عن المحكومين<sup>٣</sup>.

تعود أهم أعمال الذهبي حول الرهينة إلى فترة حياته الأولى النسكية والرهبانية. هكذا فبالإضافة إلى طابع الحياة الإنجليزية النسكية للطريق الضيقة المؤدية إلى الحياة، الطابع الذي يغلب على كتابات الذهبي الفم، ترك لنا القديس مؤلفات خاصة نسكية ورهبانية<sup>٤</sup>. حتى العام (٣٨٢) كان قد كتب أربع مقالات. وهناك يعرض القديس الدير "كمدينة فاضلة" ومجتمع حقيقي مسيحي مثالي متحرر من المشاكل وملتمزم بالفضائل والوصايا الإنجليزية. من الملاحظ أيضاً والمهم ذكره، أن كبار النساك وآباء الفيوكاليا في القرنين الرابع والخامس كانوا تلاميذ للذهبي الفم، مثل "مرقس الناسك"، و"كاسيانوس الرومي" و"نيلوس الناسك". نجد

<sup>1</sup> *Eis 'Ephes. KA'*, PG 62, 153. Παπαδοπούλου, Στυλιανού, Άγιος Ιωάννης ο Χρυσόστομος, τ.Α', ό.π., σ.15.

<sup>2</sup> Παπαδοπούλου, Στυλιανού., *Πατρολογία*, τ.Β', ό.π., σσ.415-7.

<sup>3</sup> Παπαδοπούλου, Στυλιανού, Άγιος Ιωάννης ο Χρυσόστομος, τ.Α', ό.π., σ.16.

<sup>4</sup> من مؤلفاته النسكية:

-Προς Θεόδωρον έκπεσόντα, PG 47, 277-316.

-Προς τους πολεμοῦντας τόν μοναχικόν βίον, PG 47, 319-386.

-Σύγκρισις βασιλέως προς μοναχόν, PG 47, 387-392.

-Περί κατανύξεως, PG 47, 393-422.

-Προς Σταγείριον, PG 47, 423-494.

-Περί Παρθενίας, PG 48, 533-596.

-Προς Νεοτέραν χηρεύσασαν, PG 48, 599-620.

في هذه المؤلفات لا يفحص الرهينة كموضوع مجد ذاتها، وهو لا يفعل هذا في مكان آخر. تشكل هذه الأعمال تقريباً ٢٠/١ من مجمل أعمال الذهبي الفم.

Yazigi, Παύλου, ό.π., σ.271, υποσημ.1. Meyer, L, *St. Jean Chrysostome maître de perfection Chrétienne*, Paris 1933, p.143.

<sup>5</sup> PG 47, 319-392.

عند هؤلاء استخداماً للكتاب المقدس يفوق ما يرد عند سواهم من النساك، وهذا تأثرٌ طبيعي ناتج عن تتلمذهم لدى الذهبي الفم. لكننا نجد عند نيلوس الاستخدام التأويلي للكتاب، الأمر الغريب عن منهج معلمه<sup>1</sup>. وبما أن بعض "الناسك" عملت كمدارس للفتيان، كالتي تعلّم فيها الذهبي الفم، مثل مدارس ذيوذرس وكرتيريوس، لذلك يدعو القديس الأهل إلى تنشئة أولادهم أولاً في هذه المدارس - الناسك، ليتعلّموا الفضيلة والحياة ومن ثمّ يمكنهم الدراسة أو العمل في مكان آخر<sup>2</sup>.

اندفاع الذهبي الفم وإعجابه بالرهينة من جهة، وجهل بعض الناس ومقاومتهم لها من جهة ثانية، دفعا القديس إلى بعض المواقف الشديدة تجاه هذا المجتمع المعول والمترف لحدود لاإنجيلية في أنطاكية. هكذا قد تظهر بعض مواقفه مطلقاً بشأن الرهينة، بالنسبة للقديس اختار الرهبان المدينة الأسمى<sup>3</sup>. هذا المديح للرهينة لا يتعارض عند الذهبي الفم مع تعليمه أن الكمال الروحي المسيحي ممكن التحقيق في المدن والمجتمعات، على العكس. إن تفوق الرهينة ليس خلقياً إنما بيئياً.

يشرح قديسنا تفضيله هذا للرهينة بما يلي: "بما أن الحياة في مجتمعاتنا صارت كحياة أهل سدوم وعمورة، وبسبب غياب الآداب الروحية والظروف الضرورية لممارسة الحياة الإنجيلية أو الرهبانية أيضاً، وطالما صارت المدن ساحاتٍ للنار الشيطانية، لهذا فإن المجتمعات الرهبانية والأديار هي الأسهل والأضمن"<sup>4</sup>. كانت أمنية الذهبي الفم لو أن المجتمعات تتحسن روحياً، عندها لا تلزمنا الأديار. أي لو أن المجتمع صار كنسياً وتحوّل العالم إلى ملكوت الله، أو لو حكم الرهبان أو ترهب الحكام، عندها لا داعي للتوحّد والعزلة. ليس المدانون أمام واقعنا المفروض هم الرهبان الذين يخرجون إلى العزلة بل هؤلاء المسيئون الذين يجعلون المجتمعات أرضاً غير صالحة لزرع الكلمة وحياة الفضيلة.

## ٧. اضطهاد الأرثوذكسيين

إن الذهبي الفم هو المصدر الأهم للمعلومات التاريخية، الدينية، الاجتماعية وحتى السياسية للمدينة الثانية بعد روما في الإمبراطورية الرومانية آنذاك، أي أنطاكية. وهو بالذات كان عنصراً فاعلاً في تكوين هذه

<sup>1</sup> Yazigi, Παύλου, ó.π., σ.272, υποσημ.1. *Φιλοκαλία των ιερών Νηπητικών*, μεταφ. Αντ. Γαλίτη, έκδ. Το Περιβόλι της Παναγίας, Θεσσαλονίκη 1984, σ.126εε, 88εε, 216εε.

<sup>2</sup> PG 62, 152-3. Παπαδοπούλου, Στυλιανού, *Άγιος Ιωάννης ο Χρυσόστομος*, τ.2', ó.π., σσ.23-24.

<sup>3</sup> *Πολιτείαν ουρανών πρόεπουσαν είλοντο*, PG 47, 366.

<sup>4</sup> *Είς Ματθ. Ομιλία 7, 7*, PG 57, 82. *Προς τους πολεμούντας* 1, 7, PG 47, 328.

<sup>5</sup> من المعروف أن الرهينة بدأت تخرج من نطاق المدن منذ القرن الرابع، عندما لم تعد الأخيرة ملائمة للحياة المسيحية الكاملة، الذهبي الفم نفسه غادر إلى البرية. انظر:

Meyer, L, op.cit., σ.29.

الأطر من حياة تلك المدينة. فبينما كانت الإسكندرية حينها تتراجع حافظت أنطاكية على أهميتها وسط الشرق.

عرفت الإمبراطورية في أيام القديس تبدلاتٍ وتغييراتٍ سياسية سريعة وكثيرة. فخلال حياة القديس القصيرة نسبياً التي لم تتجاوز ستين عاماً (٣٤٥-٤٠٧) اعتلى عرش الإمبراطورية أكثر من ستة أباطرة<sup>١</sup>، بعضهم كان مسيحياً وآخرون مرتدون وجاحدون، الأباطرة كونستانتديوس (٣٣٧-٣٦١)، يوليانوس (٣٦٣-٣٦٤)، يوفيانوس (٣٦٣-٣٦٤) وأوفاليس (٣٦٤-٣٧٨) نقلوا مراتٍ عديدة عاصمة الإمبراطورية وعرشهم إلى أنطاكية وذلك لمواجهة الفرس. فعدا أوفاليس، الذي حكم لفترةٍ قصيرة وكان محباً للأرثوذكسيين، ويوليانوس الذي حارب المسيحيين بشكلٍ غير مباشر، فإنَّ الإمبراطورين الآخرين اضطهدوا الأرثوذكسيين علناً وبقساوةٍ ومالا إلى الآريوسيين. ونعرف من فترة الإمبراطورين الأخيرين عدة استشهاداتٍ مثل كيرلس الأول (٢٨٠-٣٠٣). وكما يروي الذهبي الفم وأمبروسيوس أنه كان هناك استشهاداتٍ للعديد من العذارى<sup>٢</sup>.

في عهد يوليانوس عاش الأرثوذكسيون زمن اضطهاد، ولطالما قدم هذا الوالي عبادة للأوثان<sup>٣</sup>. كان الذهبي الفم عندها طفلاً<sup>٤</sup>. ولا بدّ أنه اختبر الحدث المؤلم سنة ٣٦٢ عندما أمر يوليانوس بطرد بقايا رفات القديس بايلا من "دافني" لكي لا يغضب الإله أبولون الذي كان له هناك معبدٌ قديم<sup>٥</sup>. كتب الذهبي الفم لاحقاً كلماتٍ لتقريظ العديد من الشهداء، مثل بايلا وبلاجيا<sup>٦</sup>...

نزع كونستانتديوس كلَّ الكنائس من الأرثوذكسيين وسلّمها للآريوسيين، فقط منذ سنة ٣٦٢ سمح للأرثوذكسيين مع أسقفهم مليتيوس أن يستخدموا كنيسة الرسل في المدينة القديمة، وأعطى الأسقف الآريوسي لبفليوس مع مجموعته كنيسةً واحدة أيضاً.

في زمن الإمبراطور أوفاليس اختبر الأرثوذكسيون الاضطهادات الأقسى وحُرموا حتى من أصغر مكانٍ للعبادة وكانوا يجتمعون لإقامة سرّ الشكر في المنازل وخارج المدينة وفي المغاور وعلى ضفاف العاصي. سنة

<sup>1</sup> Κωνσταντίος 337, Ιουλιανός 361, Ιοβιανός 363, Βαλεντινιανός και Ουάλης 364, Θεοδόσιος Α' 378.

<sup>2</sup> Κονιδάρη, Γερ., «Αντιόχεια», *ΘΗΕ*, τ.Β', σ.888.

<sup>3</sup> *PG* 50, 5560.

<sup>4</sup> Baur, Chrysostom, ó.π., σ.56. <http://www.reu.org/public/chrysos/life.txt>

<sup>5</sup> *PG* 50, 558.

<sup>6</sup> Elena, Martin, *Golden Mouths and Speaking Bodies: John Chrysostom's Depiction of Christian Martyrs*, University of Durham:

<http://www.sharp.arts.gla.ac.uk/issue8/Martin3.pdf>

٣٧٨ وعند وفاة أوفاليس، عاد الأسقف مليتيوس إلى عرشه في أنطاكية واستعاد حتى سنة ٣٨٠ أغلب كنائس المدينة التي كان الأرثوذكسيون قد خسروها<sup>١</sup>.

كلّ هذه الأحداث بين الوثنية والمسيحية، الآريوسية والأرثوذكسية، عاشها الذهبي الفم وعانى منها في حياته. وهذا ما أثر مباشرة على حاجات رعيته وعلى وعظه فيما بعد.

## ٨. الحياة الدينية والاجتماعية

كانت أنطاكية حيث ولد الذهبي الفم، قبل القرن الرابع، ساحة لقاءٍ لكثير من الحضارات، الشعوب، الأديان المختلفة واللغات العديدة. لهذا تهذبت هذه المدينة على قبول الآخر وفهم علوم المقارنة. يونانيون، شريون، سوريون، رومان ويهود، كلهم كانوا يقصدون هذه المدينة للتجارة والعبادة وللحياة السياسية أو للدراسة، وصاغوا معاً الحياة هناك بجوٍّ من الحرية النسبية.

كانت العلوم وخاصةً الدراسة في المدارس متقدّمةً في أنطاكية، حتى أنها اعتُبرت أئينا الشرق. وأهم هذه المدارس كانت تلك التي لـ لبيانيوس الشهيرة بعلم الخطابة. بينما لم يتعلّم سكان القرى والجوار اليونانية وكانت تنقصهم الدراسة محافظين على لغتهم السريانية.

فارق اجتماعيٌّ أكبر وطبقي كان بين الأغنياء والفقراء. حيث، بحسب الذهبي الفم، كان المسيحيون، الذين يشكلون نصف عدد السكان، هم الأغني من الطبقات الأخرى في أنطاكية. لكنّ المسيحيين كانوا يتأثرون جداً من المحيط وكانوا يشاركون في أعياد اليهود وعباداتهم، وتابعوا كلّ نشاطات الحياة الاجتماعية الوثنية للمدينة (ومنها الدينية)، في الوقت الذي كان الجوع يعذب الكثير من الفقراء. في محيط كهذا كان الذهبي الفم مضطراً للتكلّم في كلّ عظة تقريباً عن الرحمة والإحسان<sup>٢</sup>.

لم يتفهّم المسيحيون بسرعة أنّ الأخلاقيات المسيحية وطريقهم الضيقة المؤدية إلى الحياة تختلف جذرياً عن الحياة الإباحية التي للوثنيين، وحتى عن العادات اليهودية. هذه السطحية عند المسيحيين أثارت الذهبي

<sup>١</sup> Παπαδοπούλου, Στυλιανού, *Άγιος Ιωάννης ο Χρυσόστομος*, τ.Α', ό.π., σσ.11-13.

<sup>٢</sup> عندما كان عدد سكان أنطاكية في أيامه ٢٠٠.٠٠٠ نسمة من الأحرار، وربما ٥٠٠.٠٠٠ مع العبيد والأطفال، اهتمت الكنيسة والقديس بإطعام ٣.٠٠٠ أرملة وعذراء، وعدد كبير من الأيتام. كما كانت ترعى عدداً كبيراً من الغرباء والمرضى والمساجين.

[Εἰς Ρωμαίους ομιλία 11, 6, PG 60, 491-3] انظر أيضاً:

Χρήστου, Παναγιώτη, *Ελληνική Πατρολογία*, τ.Δ', ό.π., σ.236. Παπαδοπούλου, Στυλιανού, *Πατρολογία*, τ.Β', ό.π., σ.236. Yazigi, Παύλου, ό.π., σ.355, υποσημ.1.

الفم الذي اضطر إلى التهجم على ألوان هذه العبادات والعادات الخارجية، مثل المسارح الإباحية وساحات سباقات الخيل والحمّامات العامة والتسلّيات والألعاب الوثنية الموروثة، وكلّ تلك الأمور التي لم يكن المسيحيون ليتروكوها بسهولة.

إنّ "اضطهاد" هذا المحيط كان قاسياً على أخلاقيات الحياة المسيحية الصادقة في هذه المدينة الصاخبة وتشبه "مواجهته" بحسب الذهبي الفم، "الشهادة"<sup>1</sup>.

### خاتمة

عرفت أنطاكية، في زمن الذهبي الفم، فراداتٍ هامة وقوية، شكّلت كلّها المحيط الثقافي والديني والاجتماعي الذي نشأ فيه وواجهه القديس فيما بعد.

عاصمةٌ عالمية كبرى، مدينةٌ صاخبة ومعوّلة بمدارس فلسفية كبرى، قربها مناسك لأقصى وأعماق الرهبنات، ظروفٌ سياسية مضطربة، تعدّديةٌ كبيرة حضارية ودينية وإثنية، فوارق طبقيّة اجتماعية شاسعة، كلّها عوامل تلاقت في الساحة ذاتها مع رجلٍ كتابيّ لا يتراجع عن إعلان كلمة الحق.

نتج عن هذا اللقاء صدامٌ قويّ حين لم تتراجع قوى الشر أمام دفع الخير، الأمر الذي كلف الذهبي الفم في النهاية، وفي القسطنطينية، حياته كلّها.

مراتٍ أخرى نتج عن هذا اللقاء بين أخلاق هذا المحيط وبين الذهبي الفم خبراتٍ رائعة ستبقى للأجيال كلّها منارةً وغنىً وهدىً ونهر مفاهيم كتابيةٍ حياتية ينهل منه كلّ مؤمنٍ يؤمن. بما عمله الذهبي الفم كغايةٍ للحياة ومسيرةٍ في دنيانا تبتغي النهاية المنشودة، "ملكوت الله".

<sup>1</sup> *Εἰς τὴν Α' Θεσσαλονίκη Γ', PG 62, 412. Παπαδοπούλου, Στυλιανού, Ἅγιος Ἰωάννης ὁ Χρυσόστομος, τ.Α', ὀ.π., σσ.13-4.*

## تواريخ الأحداث الرئيسية في حياة الذهبي الفم:

٣٤٤: يولد الذهبي الفم.

٣٥٤: يبدأ الخطيب ليفانديوس التعليم في أنطاكية، فيعلم يوليانوس، باسيليوس الكبير ويوحنا الذهبي الفم.

٣٥٥: يأمر قسطنديوس بإغلاق المعابد الوثنية.

٣٦١ (٣ تشرين الثاني): موت الإمبراطور قسطنطينوس وإعلان يوليانوس إمبراطوراً على الدولة الرومانية، الذي يبقى على العرش حتى ٢٦ حزيران.

٣٦٢ (حزيران): يأمر يوليانوس بأن تصبح مهمة تعيين المعلمين في المدارس الفلسفية من مسؤولية الدولة.

٣٦٣: يأمر يوليانوس بفتح المعابد الوثنية ثانية.

٣٦٣ (٢٧ حزيران): يُعلن يوفيانوس إمبراطوراً للدولة الرومانية، والذي يبقى على العرش حتى ١٦ شباط عام ٣٦٤.

٣٦٤ (٢٦ شباط): يصبح فالينديانوس إمبراطور الدولة الرومانية.

(آذار): يُعلن أوفاليس إمبراطور الدولة الرومانية الشرقية، والذي يبقى على العرش حتى ٩ آب من العام ٣٧٨ حيث يُقتل.

٣٧٠: يُنتخب باسيليوس الكبير أسقف قيصرية.

٣٧٣: يصبح القديس أمروسيوس أسقف ميلان *Μεδιολάων*.

٣٧٦: يُحدّد في القسم الشرقي من الإمبراطورية عيد الميلاد في ٢٥ كانون الأول.

٣٧٩ (١٩ كانون الثاني): يُعلن ثيودوسيوس الأول إمبراطوراً للدولة الرومانية الشرقية، والذي يُعلن إمبراطوراً للدولة الرومانية بأكملها في ٦ أيلول من العام ٣٩٤ ويبقى على العرش حتى ١٧ كانون الثاني من العام ٣٩٥.

يرقد القديس باسيليوس الكبير أسقف قيصرية عن عمر ٤٩ عام.

٣٨٠ (٢٧ شباط): تصبح المسيحية دين الدولة الرسمي بأمر من الإمبراطور ثيودوسيوس الأول.

٣٨١: يُعقد المجمع المسكوني الثاني في القسطنطينية الذي يدين هرطقة آريوس ويقرر رفع أسقفية القسطنطينية إلى بطركية.

٣٩٠: يرقد القديس غريغوريوس التريزي. ويُعترف في الكنائس بحق اللجوء إلى الكنيسة.

(١٧ كانون الثاني): يُعلن أركاديوس إمبراطوراً للدولة الرومانية الشرقية ويبقى على العرش حتى ١

أيار من العام ٤٠٨.

٣٩٨: يصعد يوحنا الذهبي الفم على عرش القسطنطينية.

٤٠٣: ينفي يوحنا الذهبي الفم.

٤٠٧ (١٤ أيلول): يرقد يوحنا الذهبي الفم في كومان البنطس.

## المراجع اليونانية

- Ζήση, Θεόδωρου, Άνθρωπος και κόσμος εν τη Οικονομία του Θεού, *AB* 9, Θεσσαλονίκη 1971.  
 Κονιδάρη, Γερ., «Αντιόχεια», *ΘΗΕ*, τ.2΄.  
 Κονιδάρη, Γερ., *Η διαμόρφωσις της Καθολικής Εκκλησίας*, Αθήνα 1955.  
 Παπαδοπούλου, Στυλιανού, *Άγιος Ιωάννης ο Χρυσόστομος*, τ.Α΄, Β΄, Αποστολική Διακονία, Αθήνα, 1999.  
 Παπαδοπούλου, Στυλιανού, *Πατρολογία*, τ.Β΄, Αθήνα 1990.  
 Παπαδοπούλου Χρυσ., *Ιστορία της Εκκλησίας Αντιοχείας*, Αλεξάνδρεια 1951.  
 Πολάκη, Παρθ., Η Ελληνική Εκκλησία και ο κόσμος των βαρβάρων, *ΕΕΘΣΠΘ*, τ.1 (1953).  
 Χρήστου, Παναγιώτη, *Ελληνική Πατρολογία*, τ.Δ΄, έκδ. Κυρομανός, Θεσσαλονίκη 1989.  
 Χρήστου, Παναγιώτη, *Ο Ιωάννης Χρυσόστομος και οι Καππαδόκαι*, *AB*, έκδ. Παναγιώτης Χρήστου, Θεσσαλονίκη 1973.  
 Yazigi, Παύλου, *Εσχατολογία και Ηθική*, (Διατριβή επί Διδακτορία), Θεσσαλονίκη 1992.  
*Φιλοκαλία των ιερών Νηπτικών*, μεταφ. Αντ. Γαλίτη, έκδ. Το Περιβόλι της Παναγίας, Θεσσαλονίκη 1984.

## مراجع باللغات الأجنبية الأخرى

- Altaner, Berthold, *Patrologie, Leben, Schriften und Lehre der Kirchenvater* 1966.  
 Bartelink, G. J. M., “Philosophie” et “Philosophe” dans quelques œuvres de Jean Chrysostome ses œuvres dans l’histoire littéraire, Louvain 1907.  
 Baur, Chrysostom, *John Chrysostom and his time*, vol. 1, part 1, Buchervertriebsanstalt 1988.  
<http://www.reu.org/public/chrysos/life.txt>  
 Elena Martin, *Golden Mouths and Speaking Bodies: John Chrysostom’s Depiction of Christian Martyrs*, University of Durham:  
<http://www.sharp.arts.gla.ac.uk/issue8/Martin3.pdf>  
 Eltester, W., Die Kirchen Antiochias im IV Jahrh., *Zeitschr. Fur Neutest. Wiss.* 36 (1938).  
 Emmanuel, Soler, *Le sacré et le salut à Antioche au IVe siècle*  
<http://www.ifporient.org/spip.php?article1353>  
 Festugiere, A. J., Antioche paienne et chretienne, *The Journal of Hellenic Studies*, Vol. 81 (1961).  
 Glanville, Downey, *Transactions and Proceedings of the American Philological Association*, Vol. 89 (1958).  
 Harnach, A. V., *Mission und Ausbreitung des Christentums in der drei ersten Jahrhunderten*, Leipzig 1924.  
 Meyer, L., *St. Jean Chrysostome maître de perfection Chrétienne*, Paris 1933.  
 Savilii, Henrici, *Chrysostomi Opera Omnia* 8 (1612).  
 Schaff, Philip, *History of the Christian Church*, vol. III., Hendrickson Publishers, 1985.  
 Schaff, Philip, *Nicene and Post-Nicene Fathers of the Christian Church*, vol. IX, Christian Literature Publishing Co., New York 1886.  
 Spanneut, M., *Le stoïcisme des pères de l’Église de Clément de Rome à Clément d’Alexandrie*, Paris 1957.  
*Catholic Encyclopedia*, St. John Chrysostom:  
<http://www.newadvent.org/cathen/08452b.htm>.

*The Journal of Ecclesiastical History*, Cambridge University Press, 55 (2004):

<http://journals.cambridge.org/action/displayAbstract;jsessionid=79D84CC797FC57AE5511E956AB749B10.tomcat1?fromPage=online&aid=230819##>.